

أحمد بن خالد الناصري

كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى



الجزء السادس

منشورات



وزارة الثقافة والاتصال

محنة الفقيه أبي محمد عبد السلام بن حمدون جسون رحمه الله

قد تقدم لنا ما كان من أمر السلطان المولى اسمعيل -رحمه الله- لعلماء عصره بالكتابة على ديوان العبيد وامتناعهم من ذلك. ولما كانت سنة عشرين و مائة وألف (1708/1120). جددت الحنة. وألزم الرئيس. أبو محمد. عبد الله الروسي فقهاء فاس أن يكتبوا على الديوان المذكور؛ فمن كتب لجا. ومن أبي قبض عليه. ثم قبض على أولاد جسون. واستلب أموالهم. واجلس فقيهم الشيخ أبا محمد. عبد السلام بن حمدون جسون بالسوق مقيدا يتطلب الفداء. ثم حمل مسجوننا إلى مكناسة.

ودخلت سنة إحدى و عشرين ومائة وألف (1709/1121). فعفا السلطان عن الفقيه المذكور وسرحه. وبعث به إلى فاس ليزعج الحراطين الذين بها إلى مكناسة. فقدم وازعجهم في ربيع الأول من السنة المذكورة. ثم كان عاقبة الفقيه المذكور أن قتله القائد أبو علي. الحسن بن عبد الخالق الروسي. فمن الناس من يقول إن ذلك كان بأمر السلطان. ومنهم من يقول بغير أمره اهـ

وقد ووقفت على تقييد بخط شيخنا. الفقيه أبي عبد الله. محمد بن عبد العزيز محبوبه السلاوي(215) رحمه الله. وكان واعية. يقول فيه: إن امتحان الفقيه أبي محمد جسون كان من أجل امتناعه من الموافقة على ديوان الحراطين الذي اخترعه عليليش المراكشي للسلطان الجليل المولى اسمعيل. رحمه الله. حسبما هو مشهور. فهجاه بعض السفهاء وهجا فاسا من أجله. وحقد عليه السلطان فاستصفى عامة أمواله. وأجرى عليه أنواع العذاب. وبيعت دوره وأصوله وكتبه وجميع ما يملك هو وأولاده ونساؤه. ثم صار يطاف به في الأسواق وينادي عليه: "من يفدي هذا الأسير؟" والناس ترمي عليه بالدراهم والحلي وغير ذلك من النفائس أياما كثيرة. فيذهب الموكلون به بما يرمي عليه حيث ذهبوا بأمواله. وبقي على ذلك قريبا من سنة. فكان في ذلك محنة عظيمة له ولعامة المسلمين وخاصتهم.

ولما دنا وقت شهادته. رحمه الله. وقد أيس من نفسه. كتب بخطه رقعة وأذاعها في الناس يقول فيها ما نصه:

"الحمد لله. يشهد الواضع اسمه عقبه على نفسه. ويشهد الله تعالى وملائكته وجميع خلقه أني ما امتنعت من الموافقة على تملك من ملك من العبيد(216) إلا لأني لم أجد له وجها ولا

نص شهادة الفقيه عبد
السلام بن حمدون
قبل قتله

(215) توفي رحمه الله. بمكة المشرفة. بعد الفراغ من الحج والعمرة. ودفن بالمصلاة عام 1863/1279.

كان فصيح العبارة. عارفا بالحديث والنحو والفقه وعلوم الآلة... ورثاه المؤلف بقصيدة مثبتة في ديوانه المخطوط. مطلعها:

ملازمة التدكا تذهب باللب وتغري قدم الوجد بالهائم الصب

(216) لما امتنع الفقيه عبد السلام جسون من الموافقة على ديوان العبيد. هجاه بعض السفهاء وهجا فاسا من أجله. وقد

أجاب عنه تلميذه الفقيه الأديب الشهير العلامة الكبير. أبو الحسن علي بن أحمد مصباح الخميس الزرويلي. هاجبا الشخص الذي

صدر منه ذلك الهجاء. وكان يسمى محمد بن قاسم. بأبيات. جاء في أولها: =

مسلكا ولا رخصة في الشرع، وأنى ان وافقت عليه طوعا أو كرها فقد خنت الله ورسوله والشرع. وخفت من الخلود في النار بسببه؛ وأيضا فإنني نظرت في أخبار الأئمة المتقدمين حين أكرهوا على ما لم يظهر لهم وجهه في الشرع، فرأيتهم ما آثروا أموالهم ولا أبدانهم على دينهم خوفا منهم على تغيير الشرع واغترار الخلق بهم، ومن ظن بي غير ذلك، وافترى على ما لم أقله، وما لم أفعله، فالله الموعد بيني وبينه، وحسبنا الله ونعم الوكيل، والسلام.

وكتب عبد السلام بن حمدون جسوس، غفر الله ذنبه، وستر في الدارين عيبه، صبيحة يوم الثلاثاء الثالث والعشرين في ربيع الثاني سنة إحدى وعشرين ومائة وألف (23 ربيع الثاني 1121 / 2 يوليو 1709) اهـ

ثم بعد ذلك بيومين، أمر أبو علي الروسي بقتله، فقتل -رحمه الله- خنقا بعد أن توطأ وصلى ما شاء الله (217)، ودعا قرب السحر من ليلة الخميس الخامس والعشرين من ربيع الثاني من السنة المذكورة، ودفن ليلا على يد القائد أبي علي الروسي، انتهى ما وجدناه مقيدا.

مقتل الفقيه
عبد السلام بن حمدون
رحمه الله

واعلم أن قضية الفقيه أبي محمد -رحمه الله- من القضايا الفظيعة في الإسلام، والأسباب التي أثارها أولا، وأكدت ثانيا، حتى نفذ أمر الله فيما قضاه وقدره في أزله، بعضها ظاهر، وبعضها خفي. الله أعلم بحقيقته. غير أن المعروف من حال الفقيه المذكور هو الصلابة في الدين والورع التام، وناهيك بشاهدته هذه دليلا على ذلك، وقضيته قد تعارضت فيها الانتقال، ودخلها التعصب، فلا يوقف منها على تحقيق، وغفران الله وراء الجميع، فإنه تعالى أهل التقوى وأهل المغفرة.

رأي المؤلف في قضية
الفقيه جسوس

قال أبو عبد الله أكنسوس، وقد جرى ذكر قضية الفقيه أبي محمد عبد السلام هذا بمجلس السلطان المرحوم، المولى سليمان بن محمد، فقال: "ما قتله مولانا اسمعيل، وإنما قتله أهل فاس". قال: "ولم يمكننا أن نسأله عن حقيقة ذلك". اهـ

وفي شعبان من السنة المذكورة عزل السلطان أبا علي الروسي عن فاس، وولى مكانه حمدون الروسي، ثم بعد مدة يسيرة أخرج حمدون وأعيد أبو علي، وفيها قدم عبد الله الروسي (218) ومعه أمر السلطان ببيع أصول الجاورين بالمشرق، يعني بالحرمين الشريفين.

عزل أبي علي الروسي
عن فاس

= ألا بلغا عني اللعين ابن قاسم
فما باله، لا أصلح الله حاله

مُغَلَّغَةٌ بِرَجٍّ مِنْهَا جَنَابُهُ
وَلَا زَمَمَتْ نَحْوَ الْمَعَالِي رِكَابُهُ...

(الضعيف - ج 1، ص 134، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا).

(217) لما توفي الفقيه عبد السلام جسوس، رثاه تلميذه الفقيه الأديب علي مصباح بقصيدة عدد أبياتها 31 بينا أوردتها

الضعيف في تاريخه (ج 1، ص 137، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا)، جاء في مطلعها:

حَلَّ بِالْدِينِ بِالْقَوْمِي بَكَاءُ
فَقَتَلَ الْيَوْمَ أَعْلَمَ الْأَرْضَ ظَلَمًا

أَحْجَمَتْ دُونَ وَصْفِهِ الشُّعْرَاءُ
فِيهِ لِلْإِسْلَامِ حَقُّ الْعِزَاءِ

(218) راجع ما تقدم ص 77 في هذا الجزء من هذا الجزء، نصا وتعليقا في حق عبد الله الروسي هذا.